الشباب المصري

بين حقائق الحاضر وأحلام المستقبل

للأستاذ صلاح الدين الشريف المحامى

الشباب ! ...

أية لفظة حلوة الرنين أخاذة النغم ، تموج فى قلوبنا موج السحر ، وتختلج لها أفئدتنا وجوارحنا اختلاجة الرجاء والفرح ، كلما عطفنا الحديث نحو الشباب ، أو مالت بالكهول عاطفة التصابى إلى أحاديث القلب ونفثات الوجدان . إنها حُمَيَّا الشباب تلهبنا بسعار من قوى الحياة الدفاقة بالحياة والأمل ، فتبعثنا على أن نتنور طريقا للمنى والطموح والمجـــد ، موصولا بأفق وردى يفيض أبدا بالتفاؤل والعزم والحركة ، مشبعا أبدا بالعاطفة والحماسة والنجوى ، ذلك الأفق ، هو أفق الشباب .

فالشباب هو الحياة والاندفاع والوثبة ، هو القوى الخلاقة لأهداف الانسانيـة ومثل الحياة ، هو مرآة مجلوة براقة تعكس للحاضر والمستقبل صور القلب الفتى والغريزة المشبوبة ، وهو بعد الوسط الذهبى بين الحلم المسرف فى خياله ، والواقع المذل بوجوده وإيمائه .

على أن الشباب فى اندفاعه وتوثبـه ليس بأمن عثرة السن ، وهو فى فيض من حماسته اللاصقة بطبعه ، تلتوى عليه مسالك التجربة . وإذا كان يرنو حقا للحياة الراكضة المتطورة فما أجدره أن يكون رمزها الحى المهذب ، وفضيلتها المطبوعة على براءة الهوى والغرض .

ولكى تكمل أوصافه هذه ، ويحقق غاية الحياة فيه ، لا مهرب له من أن يربأ بنفسه عن كبرياء الجموح والدفعة ، فيحذر غرور المغالاة فى كل ما يزينه له خياله الوثاب ، حتى لا يشوه عليه رسالته ، أو يرجع به القهقرى ليصدمه فى إيمانه بنفسه وثقته بصوابه فى كل ما يعتقده ويراه .

لا بد للشباب من أن يكون وثابا ، ولكن فى وداعة وحكمة فيهتدى وحرام عليـه أن لا يجعل النهوض غايته ، ولكن فى هدوء واستقرار فينجح ، وأقمن به أن يكون على مثالية محلقة تصور له مذاهبـه ومبادئه ، ولكن فى ثقة وإيمـان فيفلح . أما اندفاع الاضطراب

والترق ، أما وثبة القلق والحيرة ، فهى ضلال لهدفه ، وطمس لمثله ، وبعثرة لقواه ، وتشكيك لإيمانه فى قيمتى الصبر والوقت .

والحق أن توفيق الشباب وتفاؤله واستقراره كما أن إخفاقه وحيرته وضلاله ، لا شك راجع الى حالة بيئاته التى يتخلق فيها ويتكون ، الى حالة المنزل والمدرسة والمجتمع ، فكل منها له توجيهه وأثره ، ولكل منها أسلوبه وطابعه ، وهو طابع تتكيف به الحياة التى يحياها وتظهر به حالة مجتمعه وعصره مكشوفة عارية أمام عينيه .

أما المنزل ، فماذا أقول عن حالته عندنا ؟ أترضينا تلك الروح المتفككة المستهترة ، التى تعبث بحرمته وهو خلية المجتمع ؟ أم لا يلج بنا الأسف عندما نفتقد رباط التضامن الذى يجمع بين أفراده ويؤلف بين رب البيت وأبنائه ، فلا نجده ولا نرى له من أثر ؟ أو نسينا أن هذه البيئة هى معمل الإيجاد ومصنع الخلق ، هى التى تمد الدولة بأبنائها وحماتها ، وتهب الأمة نساءها ورجالها ؟

أصدقونى القول بربكم ! هل شممتم بين جمهور الآباء عندنا من يعرف للأبناء حق الحياة ، الحياة الفرحة الفياضة بالأخاء والود ، يتبادلون فيها أجمل مشاعر الأبوة والبنوة ، وهى بلسم الحياة وإكسير العمر . إنك لن تجد فى هؤلاء الآباء غير أحد رجلين ، إما رجل غلب على طبعه التصنع الممقوت والتكلف المسرف فى كل شيء ، فوضع حواجز المركز وفوارق السن حائلا بينه وبين أبنائه ، فلا يرضى تفاهما معهم ولا يزن لهم رأيا ، ولكم يلج فى تكلفه وتصنعه ، حتى ليصبح فى واد غير واديهم وحياة غير حياتهم ، فيفقد البيت انسجامه ، وتتداول الحياة فيه معركة صامتة مكبوتة ، بين حفاظ متصنع يبغى الكبت والضغط ، وتوثب فتى يريد الفكاك من أسر الجمود والضغط ، وبهذا الوضع المعكوس وبهذه العقلية المتكسة يفقد البيت تآلفه وانسجامه ، ويفقد الآباء والأبناء مشاعر التعاطف والتفاهم بينهم . ومن هنا تفشل تجارب التربية ، ومن هنا تتألف عناصر المأساة التى تروع الأسرة ، وتتمثل لها فى تمرد الأبناء ، وإخفاقهم وضلال مسلكهم .

أما الصنف الثانى ، أما الطراز الآخر من الآباء ، فهو على نقيض الفريق الأول ، وله طابع يغاير ما طبع عليه مبالغة فى اللين والضعف ، ماذا أقول ، بل فى الاستخذاء الذى ينافى حزم الرجولة والتراجع الذى يهدم معنى السيطرة . وأقصد بالسيطرة حق الهيمنة الذى للأب على شؤون بيته صغيرها وكبيرها ، يصدر فى ذلك عن إحساس بالمسئولية وتقدير لخطورة الدور الذى يمثله فى الحياة ، فهى إذن سيطرة رشيدة حازمة لا تعرف فى الأخذ بحقها طغيانا ولا إسرافا .

لم يبق إذن غير حل وسط أو منزلة بين منزلتين، فلا إسراف فى الضغط والقسوة ولا مبالغة فى اللين والضعف .

وما أجمل أن يرى الأب فى أبنائه أصدقاءه وخلانه ، يجرب معهم معانى الصداقة الحقة ، صداقة النصح والثقة والصراحة ، لاصداقة التكلف والخداع والتغرير . صداقة التفاهم والاحترام والمحبة ، لاصداقة الرياء والتملق والغرض. بهذه الصداقة التى يعتمد الأب الحكيم أواصرها مع أبنائه ، يتآزر معهم على تخليقهم وتوجيههم على إشعارهم معنى الرجولة رجولة المسئوليات والتضحيات وحمل الأعباء ، رجولة تمهم لنفسها حقها وللأسرة التى خلقها حقها ، وللوطن مربتهما جميعا ، حقه بل ضريبته .

ولكن هذا الحلم ، بل هذه المعجزة ، كيف نحققها ونمهد لظهورها السبيل . سبيلها هو الآباء ووسيلتها هى الآباء والمعين عليها هم الآباء . ثم يأتى بعدهم أساتذة معاهدهم العلمية ثم سياسيو الأمة وقادتها .

لا مفر للأب من أن يكون قدوة لابنه وأسوة ، عليه أن يصنع من نفسه النموذج الحى الكامل أو الشبيه بالكامل ، عليه أن ينأى عن كل ما يهبط به فى محضر من أولاده، فالآباء هم الأهداف التى تتجه اليها أنظار الأبناء فى مراحل تكوينهم الأولى ، وهذه المراحل هى من البناء بمثابة الأساس ، واذا رأيتم شبابا قد غلبت عليهم نزواتهم وضلوا عن سبيلهم ، فلا تسارعوا بصب جام السخط والغضب عليهم وحدهم ، بل فتشوا عن حال الآباء وسياسة الآباء وعقلية الآباء ، تعرفوا السبب وبئس منكم العجب ، أنا لا أتصور أن رجلا يقضى كل أوقات الفراغ فى مقهى عام أو فى أى مكان آخر ، بعيدا عن بيئته وأسرته ، لا يعرف من حالهم وأمورهم أكثر مما يعرفه أجنبى عن الأسرة ، أى والله أجنبى عنها ، كأن الأمر لا يعنيه هو بل يعنى شخصا غيره ، لا أفهم منه ولا من مثله أن يخرج للأمة رجالا أو يبنى للمجتمع أسرة ، إن أوقات هذه المقاهى لأحق بها بيته ، لأولى بها أبناؤه ، وكم يخجلنى أن أقول إن الغربى يعطينا فى هذه الناحية أجمل الأمثال ، فلكم كونت أحاديث المدفأة وتلك المشاركات الوجدانية والعقلية التى وجدت جوها النقى فى حجرات الجلوس ، رجالا وأبطالا ساسوا الأمم وقادوا الجيوش أولئك رجال قدروا معنى الأسرة، بل قدروا الأبوة قدرها، ومثلوا بصدق دورها .

أما المدرسة عندنا ، فهى لا تقل عن الأسرة أثرا فى توجيه الشباب ، غير أن التوجيه السليم ما زال يعوزها ، إذ لا بد لها أن تكون قطعة نابضة من الحياة ، صورة مصغرة من المجتمع ، مصنعا مكتمل العدة ليهذب ما فات الأسرة أن تهذبه ، و يصلح من وجهة الفن، ما فوق مقدور الآباء ذوى الثقافة المحدودة أن يصلحوه .

انى لا أنكر أن برامج الدراسة فى المدرسة والجامعة قد تهذبت كثيرا عن ذى قبل غير أنه يؤسفنى أن عناصر التربية الاستقلالية لم تحقق فى برامجها بعد . نحن لا نريد نسخا مكررة من كتب عندنا من أنادها الكثير ، لا نريد صورا مقلدة وآلات حاكية لا تعرف غير أن تحرك بوحى من غيرها وضغط ممن يملكون السيطرة عليها ، بل نريد مع التوجيه الرشيد والتثقيف الدسم ، دربة عملية واسعة على فهم الحق والواجب . فلباب الثقافة الحقة هو الذى يغرس فى النفس المثل ثم يحفز العقل الى أن يهتدى الى طريقة تحقيق المثل . وهنا يلعب التلقين وتلعب القدوة دورا لا يقل عن دور الاب فى الاسرة .

يجب أن تنصرف قواعد التربية عندنا الى خلق هذه القدوة الملقنة ، بل هذه الأسوة الصادقه فى ايحائها المتحمسة فى تأدية رسالتها ، لتهدى بها دولة الاخلاق والعلم ، و يؤسفنى أن أقول ، إن كلاهما ما زال فى دور التكوين عندنا ، لكننا اذا حققنا هذا ، ومتحققه فسوف يكون لشبابنا من علمه وعمله مايحقق للوطن مكانه اللائق به فى محيط الثقافه العاليه والتضامن العالمى .

إنى لو أجملت واجبات الشاب المصرى ، لحصرتها فى ثلاثة ، أولها وجدانى محض شخصى ، وثانيها وثالثها اجتماعى .

فأما الواجب الوجدانى أو إن شئت المعنوى ، فهو أن يؤمن الشاب بمقدسات ومثل يهتدى بها إلى معنى الحياة ، معنى الوجود فى مجتمع . وأى قداسة أقدس من محبة الوطن بل أى حق أروع أو أجمل من حق الوطن على شبابه وأبنائه ، إن هذه الأمم التى تتصارع حولنا فى معركة الحياة والموت وتضرب لنا أعلى الأمثال فى بذلها وفدائها لأوطانها ، توحى الينا كيف فهم أبناؤها حق الوطن المفدى الذى تقاضاه منهم مهجا ودماء فى أوقات الحروب وعقولا وعزائم وأعمالا فى أزمته السلم ؛ ولن يقل شبابنا عن هؤلاء إيمانا بحق الوطن عليه فى كلا الحرب والسلم . ولعل أجل خدمة يؤديها إليه أن يصدق فى كل علم يحصله وفى كل عمل يأتيه وفى كل قول يأخذ النفس به ، فانما الأوطان بأخلاق وأعمال ولم تقم الأوطان يوما على أوهام وأقوال .

أما الواجب الشخصى فهو أن يعرف بحق أن لبدنه عليه حقا . فلا يهدر قوى جسمه وعقله ، وليحذر تلك النزعة المريضة للنكسة المتهوسة ، التى تصور له فترة الشباب فترة للمتعة والاستباحة والهوى الآثم والسدور فى قضاء اللبانات . فلكم حطمت تلك النزعة من أجسام زاهرة ، ولكم أطفأت من عقول فتية ، ولكم أوقعت الشباب أسرى عادات مستقبحة وكبلته بقيود الرذائل والآثام ، فتحللت معنويته وتصاغرت طامحاته واستخذى لسلطان الشهوات .

إن واجبنا جميعا أنْ نساعد الشباب على أن ينتج أقصى ما يمكن له إنتاجه ، بأن نسهل له الوصول الى حالة جسمية كاملة . علينا أن نتخذ من الألعاب الرياضية دعامة من أرسخ الدعامات التى نمتربها المدرسة فى سبيل التربية الصادقة ، وأن نعنى بها ، لا كمادة ثانوية أو سبب للهو وتزجية أوقات الفراغ ، بل كغاية رئيسية ووسيلة مثلى تصل التربية الحقة بأهدافها وأغراضها ، تلك التربية التى تعلم الشباب كيف يتحمل المصاعب ويتقبل صدمات الحياة ، دون تذمر أو شكوى ، ودون تراجع أو استرخاء .

ويبقى عليه الواجب الاجتماعى ، واجب المساهمة فى تحصيل الخير للمجتمع وأفراد المجتمع فعلى الشاب أن يشعر بأن فرديته لا تغنيه ولا تجديه اذا انزوى عن الحياة وآثر الاعتزال ، فالعزلة مفزع الضعيف وملجأ الشخصية المريضة المتحللة التى تمثل الشلل فى جسم الحياة . عليه أن يساهم بقواه فى شتى مناحى الحياة فى أمته ، فيأخذ بيد التوجيهات الاجتماعية المتعددة ، من حرب للأمية ومقاومة للأمراض الجسمية والخلقية ، وتحطيم لأصنام البدع والضلالات . وفى هدى هذه الواجبات الثلاثة ، يعرف الشباب كيف يقضى أوقات فراغه . وأوقات الفراغ مشكلة المشاكل فى تربية الشباب . . .

أما بعد ، فلتفكروا يا قادة الأمة و يا ولاة أمورها و يا آباء الأبناء و يا أساتذة الطلبة ، فكروا جميعا فى شباب مصر ، وتبينوا نجواهم واستشعروا آمالهم ، وتساندوا جميعا فى رعاية الشباب ، ولتكونوا منه أساتذة متفقين وجنودا عاملين لخدمة الوطن .

صلاح الدين الشريف

المحامى

أقوال مأثورة

لاعب ابنك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه .

التوفيق خير قائد ، ، وحسن الخلق خير قرين ، والوحدة خير من قرين السوء .